الوجود الإسلامي في الغرب

الوقائع والمصائر

عزالدّين عناية[1]

الذات الجريحة

مع سنوات الهجرة الأولى نحو الغرب، طغى على مجمل السياسات المتّصلة بالمهاجرين نوع من الاعتقاد واليقين، مفاده أن الوافد سوف يتلاشى في ذلك المدى الغربي الجارف، عاجلاً أم آجلاً، وهو ما كان يشمل المسلمين منهم أيضاً. فقد جعلت سطوةُ الغرب وبريقُ سحر حضارته عديدَ الشعوب النائية تتطلع إلى نمط عيشه وتهتدي بهديه، في الثقافة والتعليم والسياسة والاقتصاد، فما بال من وفد عليه وحلّ بين ظهرانيه؟ الأمر الذي انسحب في الحقيقة على العديد من المسلمين الوافدين إلى دياره. لكن في الواقع، وعلى مدى عقود، بقي هؤلاء القادمون في حالة كمون حضاري، تعذّر تشخيص حقيقته وتطوّراته ومآلاته. وهو ما جعل العديد من الدارسين الغربيين يركنون في بادئ الأمر في أبحاثهم إلى الظّاهر، بتفسير الأمر بسطوة الحضارة الغربية الكونية ويغفلون عمّا خفي في أعماق الذوات الجريحة.

فقد أمْلت الأوضاع السائدة في العالم القبولَ بالأمر الواقع، ولم يبق سوى التحكم بتلك الظروف السائرة وفق المراد الغربي. ورغم أن ذلك التحكم كان متعالياً ومتعسّفاً في مجمل الأحوال، فإنه ما جرى التنبه إلى أنه مرشَّح للدخول في أزمة، وربما سيطاله الاهتزاز، وهو ما صار يطلق عليه لاحقاً بتعثّر سياسة الاندماج أو حتى التصريح بفشلها.

لقد غرّت الدارسين الغربيين تلك الأوضاع القائمة، حتى شُبِّه

للكثيريـن أن الجمـوع المهاجـرة، التـي غـدت فـي الحقيقة مسـتوطنة، منسـاقة في مسـار من الذوبان لا مناص منه، بموجب ما حصل من تبدّل على ألسـنتها، سـواء مع الجيل الثاني أو حتى فـي ما أطلّت ملامحه مـع الجيـل الأول. حيث هُجر لسـان الآباء والأجداد داخـل البيت، بيـن أفراد نواة الأسـرة الصلبـة، وحلّ محلـه لسـان الغلبـة، لسـان المـكان. بـدت العملية، خـلال العقـود الأولـى، محسـومة لصالـح الغـرب وثقافاته وعوائده وألسـنته، ولاح أن المهاجر المسلم قد قطع شـوطاً في التخفّف من مخزونه التراثي. ولم يؤخذ فـي الاعتبار أن تلك التحوّلات المتسـارعة قد تكون تحت دفع ما رافق الجيل الأول من المهاجرين من سـعي حثيث لتحسـين أوضاعهـم المادية، فضلاً عما طبع أكثرهم من مستويات تعليمية متدنّية.

ولا شـك أن الجيـل الأول مـن مسـلمي المهجر قد بقـي على صلة حميمـة بثقافة الوطـن، إضافة إلى مـا لازمه مـن متابعة لأوضـاع البلاد وتقـصٍّ لأخبار الديـار، ولم يخفت ذلك الحنين إلا مع الجيل الثاني، وإن تضاءل منذ الجيل الأول بعد حصول الاسـتقرار ومسـايرة نسـق حياة البلد المضيف. لذلك ما يلاحظ

لقد غرّت الدارسين الغربيين تلك الأوضاع القائمة، حتى شُبِّه للكثيرين أن الجموع المهاجرة، التي غدت في الحقيقة مستوطنة، منساقة في مسار من الذوبان لا مناص منه

أنـه غالباً ما تتنامـى لدى المهاجر المسـلم من الجيل الأول، روح عدوانية تجاه البلد المضيف، وهي حالة ناشـئة عمومـاً نتيجة الشـعور الحاد بالعزلـة، وهو ما يتدعّم أيضاً بخيبة المهاجـر في الاندماج والانخراط فـي دورة المجتمع الجديد أحياناً، لافتقاد المؤهلات في ذلك أو لفشـل طارئ، خصوصاً مع من كان يمنّي النفـس بمغنم مادّي ولم ينـل ما كان يصبو إليه. فتجد العديد من المهاجريـن العرب نحو إيطاليا من الجيل الأول يتأسّـون عـن محنتهـم وبلواهـم بالحديث عن فتح روما، وكأنه الثأر الذي ينتظرونه بعد تلك المعاناة الأليمة[٢].

حين تغيب الحقوق تطفو نعرات الهوية

خلال العـام ٢٠١٠ بلغ مجمل أعداد المسـلمين في أوروبا ٤٢,٩٦٧,٠٠٠ نسمة، وعلى مدى أربعة عقـود بيـن ١٩٧٠ و ٢٠١٠ اسـتقبلت القارة العجوز بمفردها ٢٢ مليون مهاجر من المسـلمين الشرعيين، ويُرجَّـح تضاعف العـدد خلال العشـريتين القادمتين وبلوغه مسـتوى ١٠ بالمئـة من العـدد الإجمالي من سـكان دول المجموعـة الأوروبيـة. وأمـا فـي حـال انضمـام تركيـا فسـيتخطى العـدد ١١٠ ملاييـن مـن الأوروبييـن المسـلمين، أي قرابـة ٢٥ بالمئـة مـن العدد الإجمالي للسـكان. ومع هذا التطور في أعداد المسلمين عوّل العديد من الدول الغربية طيلة العقود السـالفة على الدمج القسـريّ للمهاجرين، من خلال شطب أصول الوافدين أو العمل على طمسها. غير أنه

أعداد المسلمين في دول القارة الأوروبية وفي كلّ من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا

البلد	العام ٢٠١٠	توقّعات ٢٠٣٠
إنكلترا	٢,٨٦٩,٠٠٠	٥,٥٦٧,٠٠٠
إيرلندا	٤٣,٠٠٠	١٢٥,٠٠٠
إسبانيا	١,٠٢١,٠٠٠	١,٨٥٩,٠٠٠
البرتغال	٦٥,٠٠	٦٥,٠٠
فرنسا	٤,٧٠٤,٠٠٠	٦,٨٦٠,٠٠٠
بلجيكا	٦٣٨,٠٠٠	١,١٤٩,٠٠٠
ألمانيا	٤,١١٩,٠٠٠	٥,٥٤٥,٠٠٠
هولندا	٩١٤,٠٠٠	١,٣٦٥,٠٠٠
سويسرا	٤٣٣,٠٠٠	٦٦٣,٠٠٠
النمسا	٤٧٥,٠٠٠	٧٩٩,٠٠٠
إيطاليا	١,٥٨٣,٠٠٠	٣,١٩٩,٠٠٠
الدنمارك	٢٢٦,٠٠٠	٣١٧,٠٠٠
النرويج	١٤٤,٠٠٠	٣٥٩,٠٠٠
السويد	٤٥١,٠٠٠	٩٩٣,٠٠٠
فنلندا	٤٢,٠٠٠	١٠٥,٠٠٠
إيزلندا	١,٠٠٠	١,٠٠٠
اليونان	٥٢٧,٠٠٠	٧٧٢,٠٠٠
ألبانيا	٢,٦٠١,٠٠٠	٢,٨٤١,٠٠٠
المجر	٢٥,٠٠٠	٢٤,٠٠٠
بولندا	٢٠,٠٠٠	١٩,٠٠٠

البلد	العام ٢٠١٠	توقّعات ٢٠٣٠
التشيك	٤,٠٠٠	٤,٠٠٠
سلوفاكيا	٤,٠٠٠	٤,٠٠٠
سلوفينيا	٤٩,٠٠٠	٤٩,٠٠٠
كرواتيا	٥٦,٠٠٠	٥٤,٠٠٠
صربيا	٢٨٠,٠٠٠	٣٧٧,٠٠٠
الجبل الأسود	١١٦,٠٠٠	١٣٦,٠٠٠
مقدونيا	٧١٣,٠٠٠	٨١٢,٠٠٠
البوسنة والهرسك	١,٥٦٤,٠٠٠	١,٥٠٣,٠٠٠
كوسوفو	٢,١٠٤,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠
بيلّاروسيا	١٩,٠٠٠	١٧,٠٠٠
مولدافيا	١٥,٠٠٠	١٣,٠٠٠
لتوانيا	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠
أستونيا	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠
لاتفيا	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠
أوكرانيا	٣٩٣,٠٠٠	٤٠٨,٠٠٠
بلغاريا	١,٠٠٢,٠٠٠	١,٠١٦,٠٠٠
رومانيا	٧٣,٠٠٠	٧٣,٠٠٠
أميركا	٢,٥٩٥,٠٠٠	٦,٢١٦,٠٠٠
كندا	٩٤٠,٠٠٠	٢,٦٦١,٠٠٠
أستراليا	٣٩٩,٠٠٠	٧١٤,٠٠٠

المصدر: مركز الأبحاث الأمريكي
"The Pew Forum on Religion and Public Life"

تبيّن لاحقاً، مع اشتداد عود المسلمين، أن من ادعى الغلبة وإدارة دفة الأمور لصالحه قد بدت عليه آثار الوهن. رغم أن ذلك المستضعَف المهاجر لم تنشط فيه بعد قواه الثقافية، ولم يستيقظ فيه مخياله التراثي، وكل ما في الأمر أن تحسّناً في أحواله المعيشية طرأ عليه.

إذ لا يخفى أن أوروبا في الوقت الحاضر تشهد انكماشاً على عدّة أصعدة، مما خلف نوعا من الحذر في الانفتاح على الآخر، ناهيك عن الحيطة في التعامل مع المختلف دينياً الكامن في داخلها. وإن كان أحرى أن تتعامل مع الوافد/ الناشئ الحضاري الإسلامي بعين الإثراء لا بعين الريبة.

سابقاً، كان في أوقات الصحو يتكرر الكلام عن القيم الغربية، بصفتها كونية ومقبولة من الجميع. ولكن حين اشتدت الأزمات في الداخل علا خطاب عن تهدّد تلك القيم من قبل نظيرتها الدخيلة. وفي الحقيقة، لم تبلغ الحدّة مستوى التصادم أو التهديد القيمي فوق الأرض الغربية، وكلّ ما في الأمر أن هناك عدم توازن داخل المجتمع، يقع فيه الأجنبي عامة، والمسلم منه بالخصوص، ضمن معادلات الطرف المستضعَف. لذلك يجري الحديث عن التهديد الحاصل من قبل المسلمين لهوية الغرب المسيحية اليهودية، ولا يقع التطرق إلى مساهمة هؤلاء في بناء الغرب، أو في إضفاء مسحة تشبيب عليه. حيث يتعالى الحديث عن أخذهم ولا يقع التطرق إلى عطائهم.

فلا ريب أن الحضور الإسلامي في الغرب فيه نفع لبعض وضرر لآخرين. ولا يمكن التعميم أنه يشكل هاجساً أو خطراً على الجميع، وإلا لتكالبت الدنيا على هؤلاء الكادحين من أجل تحسين أحوالهم ومن أجل رفاه الغرب أيضاً. وربما يُعدّ العرب والمسلمون، إذا ما قورنوا بالسود والغجر والألبان والرومان وسكان أمريكا اللاتينية، أكثر قبولاً في تلك المجتمعات. إذ يندر في إيطاليا -مثلاً- وحتى الراهن، أن تجد أسود البشرة يعمل في مقهى أو في مطعم. لكن ما يلاحظ أن الطرف المتوجّس من المسلمين، أو حتى المعادي لهم، هو ضئيل العدد صاخب الأثر، مقارنة بالطرف الغربي المرحب. وفي خضمّ هذه الأجواء يسري تواطؤ بين عديد السياسات اليمينية والعنصرية على تعطيل حركية الوجود الإسلامي، بطرق شتى وفي العديد من القطاعات، والواقع أن تلك الممارسات تقوي من حالات الاحتقان وتراكم المطالب ولا تحلها أو تلغيها.

فلو أخذنا القطاع التعليمي، في ما يحتاج فيه المجتمع الإيطالي إلى العنصر الأجنبي مثلا، كتدريس اللغات الأجنبية، أو أشغال الوساطة اللغوية والترجمة، أو العمل في الوسط الإعلامي، وهو ما تحتاجه كثير من الوزارات والمؤسسات، فعادة ما لا يسمح للأجنبي فيه بالترقي ولو كان ذلك العمل في الجامعات والكليات، التي يقدّر أن تكون في منأى عن هذه التجاذبات، حيث يجمَّد المنتدب لذلك في مستويات دنيا لا يتعداها. وإن كانت لا تتواجد قوانين

تمنع تدرجه في المهنة، بل عادة ما تكون المسألة بيد القائمين على الإدارة أو المؤسسة، فيحدّ هؤلاء، وفق التقليد السائد، من ترقّي الأجنبي إلى المواقع العليا.

فإمساك أبناء البلد، الأصليين، بمقاليد الأمور، فضلاً عن حضورهم النافذ في مواقع القرار، لا يزال يتحكّم باللعبة الاندماجية ويمسك بمقدراتها، رغم غياب القوانين المانعة أحياناً. ففي قطاع اقتصادي متعلّق بمجال النقل مثلاً، لا تزال التراخيص حكراً على أبناء البلد «الأصليين» دون سواهم. وحتى أشغال أعمال التنظيف التابعة للبلديات فهي لا تزال مقصورة على «العنصر الأصيل لا الدخيل»، ولم يكتسح المهاجر لحدّ الآن إلاّ الأعمال الشاقة، أو الأعمال التي يكون فيها عرضة لقذارة هائلة أو لمخاطر التلوّث، كالأعمال في محطات البنزين وما شابهها، وهو ما نجد العامل الأجنبي مرحبا به فيها[٣].

وبالتالي، لمواجهة ذلك الصدّ لجأ المهاجر إلى تشييد حيز دفاعي عرقي غالباً ما عمل ونشط في نطاقه، مثْل نواتات التجمّعات التجارية للصينيين، وللوافدين من شبه القارة الهندية، وللعرب، وللأفارقة. وهو ما خلف وضعاً شبه مغلق بين عديد الجماعات العرقية المسلمة وغير المسلمة، يتلخّص بالأساس في محدودية الإلمام بلغة وثقافة المجتمع الحاضن. لكن ما يبدو جلياً أن ذلك السياج السوسيولوجي يرتبط بالأساس بالجيل الأول من المهاجرين، إذ يتبيّن أن الجيل الثاني مدرك لضرورة تخطّيه، وهو وضع عادي خصوصاً إذا ما كان المهاجر متواضع الزاد الثقافي، فمن الطبيعي أن يهرع إلى بني مِلّتِه وجِلْدتِه، ليحتمي بهم وليجد فيهم أنساً وسكناً. ففي البدء استبد بالمهاجر شعور ملازم أنه دخيل وأجنبي، والحال أن تلك الوضاعة السلوكية والنفسية ما استمرت طويلاً، بل بدأت بالاندثار مع أبناء المهاجرين، من مواليد أرض الغربة، الذين بات «المنفى» موطنهم ومسقط رأسهم، فضلاً عن كونه حاضنة ماضيهم وحاضرهم.

مع ذلك، غدا تواجد الملايين المسلمة في الغرب استيطانياً ودائماً في جملته، الأمر الذي جعل السواد الأعظم منهم ينسج لحمة براغماتية وعملية مع الأوطان الحاضنة، التي ما عاد تواجدهم فيها ظرفياً أو طارئاً كما يصوّر أحياناً. حيث تحولت الضغوطات الاجتماعية، والهواجس الأمنية، والخيارات السياسية والاقتصادية أقداراً تتشارك فيها تلك الجماعات مع غيرها من أبناء البلد الأصليين على حد سواء، وما عادت نائية عن تلك الظروف وعمّا يطال مجمل تلك المجتمعات من ضرّ أو نفع. وإن تخلّد من ضمن الملايين المسلمة المقيمة جزءٌ، ليس بالكثير، يلاقي عنتاً في الاندماج في واقع الغرب. ولا أظن أن ذلك الجزء سيجد اندماجه في بلدان المأتى لو قدّرت له العودة، بل هو من طبيعة الشرائح الاجتماعية العائمة.

ما يلاحظ أنه غالباً ما تتنامى لدى المهاجر المسلم من الجيل الأول، روح عدوانية تجاه البلد المضيف، وهي حالة ناشئة عموماً نتيجة الشعور الحاد بالعزلة

ففي أعقاب تسرّب الوهن لسياسات الهجرة

الغربية، التي رافقها حديث عن التهديد الذي يمثله الإسلام، في المدى المنظور، بات يلوح جلياً التمايز الذي تشهده فئات مجتمعية دون أخرى، ضمن لعبة التوازنات العرقية الدينية المختلّة. وربما من هذا الجانب وبفعل الدونية المسلّطة على المسلمين داخل الغرب غدا الإسلام مطلبيّاً ومحتجّاً على التجاوزات وأشكال التمييز المسلّطة على أتباعه. فقد بدأ التواجد العربي المهجري ينزع ثوبه العمالي الرثّ الذي يلفّه، إلى ولوج أنماط أخرى من الأنشطة كانت في ما مضى حكراً على أبناء البلد.

يجري الحديث عن التهديد الحاصل من قبل المسلمين لهوية الغرب المسيحية اليهودية، ولا يقع التطرق إلى مساهمة هؤلاء في بناء الغرب

والواقع أن الحضور الإسلامي قد بقي مع الجيل الأول مشغولاً بلقمة العيش وبهواجس تسوية أذون الإقامة ولمّ الشمل العائلي، ما جعله هشاً وعرضة إلى عديد التوظيفات، ولم يشهد اجتراحاً للنشاط الفاعل، الجمعياتي والنقابي والثقافي، سوى مع الجيلين الثاني والثالث اللذين أخذا زمام المبادرة، حيث تم تخطّي تلك الضرورات الأولى لينفتح المهاجر على مجالات أرحب. بات فيها المسلم يعي حقوقه ويفقه سبل كسبها، بعد أن كانت تُمنح له منةً وهبةً، وهو ما غيّر من سبل تعامله مع الفضاء. فعلاً يبدو الإسلام في هذه الحقبة قد خرج من وضعه الخفي إلى وضع جلي، ما عاد الإسلام أشخاصاً عابرين مهاجرين بل مواطنين مقيمين[٤].

فنرى أحياناً اختزال الإشكاليات الاجتماعية العائدة للوجود الإسلامي في الغرب في مقولة جامعة مفادها أن المسلم بات يشكّل تهديداً للنموذج الغربي. وفي الواقع إن المسلمين في الغرب قد صاروا في عمومهم جزءاً من هذه الديار، ويتماهى معظمهم مع فلسفتها الاجتماعية. وحتى إن ارتفعت نداءات بالمطالبة ببعض الحقوق أو التمايزات، أو الامتعاض من بعض المعاملات، فهي لا ترتقي إلى المطالبة بتغيير النموذج الغربي أو تهديده، كما يصوّر، بل إن مطالبهم أو انتقاداتهم تشير إلى حالات في تقادم النموذج الغربي في تعاطيه مع الخصوصية الإسلامية، بغرض معاملتها بالقدر نفسه الذي تُعامل به المكوّنات الحضارية الأخرى الحاضرة في الغرب.

من الإسلام في الغرب إلى الإسلام الغربي

يتحدث المسلمون في أوطانهم عن قضايا «الإسلام والغرب» بمنطق المغايرة والانفصال، ولكن المسلمين هنا، بعد أن باتوا جزءاً من هذا الغرب ومن همومه فإن إشكالياتهم في الحقيقة مطروحة ضمن أبعاد أخرى تتراوح بين «الإسلام في الغرب» و«الإسلام الغربي»، ولذلك نرصد في الواقع الأوروبي أن معايير الحديث عن الإسلام المهاجر غير دقيقة، بعد أن صارت حشود هائلة من المسلمين موزعة بين فئة ما بعد الجيل الأول من المهاجرين، وفئة العوائل المبنية على الزيجات المختلطة، وفئة المهتدين إلى الإسلام[٥].

ولكن رغم حصول تلك التطورات، فككل وجود أقلّوي وفئوي، يقبل الوجود الإسلامي بالسائد والغالب داخل الغرب، ولا يرى مدعاة للتنصّل منه. فقد خلق معطى العيش الجديد في الشخصية المسلمة روحاً من التسامح والتقبّل فاق ما اعتادت عليه في بلدان المأتى. وربما يستدعي السياق التعريج على بعض الأمثلة منها: كنت يوما أهمّ بدخول أحد ما يسمى بالمساجد في روما وإذا بشاب إيطالي وصديقته يتوقفان عند مدخل المصلّى يحتسيان الجعة. لم يثر المشهد انتباه الوافدين من المصلّين، وأظن أن أغلبهم عدّه مما لا ينافي العرف والمعتاد، لتعوّدهم على مثل هذه المشاهد، غير أن ذهني ذهب بعيدا في مقارنة الحدث بافتراض حدوثه في بلد مسلم. مشهد آخر ضمن هذا السياق، يقطن المسلمون في أحياء تتعالى فيها أصوات نواقيس الكنائس في مواقيت عدة، وأجزم أن جل أبنائهم قد اعتادوا سماع قرع النواقيس قبل أن يدركوا صوت الأذان. فالناقوس يطرق آذانهم يومياً والأذان يسمعونه في المناسبات داخل بيت الصلاة لا خارجها حين يرتادون الجوامع، إن حصل لهم ذلك. مشهد ثالث نسوقه، يلتقي أفراد أسرتي مبشري «شهود يهوه» في الحي الذي نقطن فيه تقريباً بشكل يومي، وأحياناً يطرقون باب بيتنا على عادتهم في التبشير من بيت إلى بيت. حينا نتجاذب أطراف الحديث وآخر يمدّوننا بمنشوراتهم الدينية وكتيباتهم التبشيرية. حتى باتت شبه صداقة تجمعنا، يعرفون هويتنا ونعرف هويتهم. ولعلها حالات متكررة مع كثير من المسلمين في الغرب. ضربت هذه الأمثلة لأقول إن الحضور الإسلامي في الغرب بات يصوغ هويته ووعيه بذاته ضمن واقعية المكان، لا وفق ما عاشه الآباء أو الأجداد، ولذلك ليس فقط الإسلام ما يتحول في اتصاله بالمجتمعات الأوروبية، بل حتى هذه الحواضر قد طالها التحوّل بموجب الإسلام الساكن فيها[٦].

فحين تُنتج الجموع المسلمة وعيها وتأويلها وفقهها الخاص لدينها، يتسنّى الحديث عن الإسلام الأمريكي، أو الإسلام الأوروبي، أو الغربي عموماً. ولكن، ما استمرت تلك الجموع تعوّل على الاستيراد الجاهز في ذلك، ويغيب عنها طرح السؤال بشأن هوية المكان، وبقيت مسوقة في وعيها بالخارج، باعتباره المركز الذي تستقي منه فقهها ورموزها، فإنها تبقى دون مستوى الشهود الحضاري المرجو منها. إذ لا يزال الوجود الإسلامي في الغرب يفتقد إلى طليعة مثقّفة متجانسة نابعة من الجموع المسلمة. وأن ما لدينا ثلاثة أنواع من المشتغلين في الحقل الثقافي:

وبفعل الدونية المسلّطة على المسلمين داخل الغرب غدا الإسلام مطلبيّاً ومحتجّاً على التجاوزات وأشكال التمييز المسلّطة على أتباعه

النوع الأول يتشكّل من جموع عاملة في حقل الثقافة والتعليم والإعلام، موزعة بين المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز الأبحاث والمؤسسات، يجاري خطابهم مسارات الفكر الغربي عامة في نظرته إلى المسلمين وإلى الإسلام. وعادة ما يتوجه خطابهم إلى

الغربي بموجب مواقعهم وأشغالهم. وهم ليسوا في استقلالية مادية ولا خطابية عن الغرب، يمنحهم رزقاً فيقايضونه خطاباً.

خلق معطى العيش الجديد في الشخصية المسلمة روحاً من التسامح والتقبل فاق ما اعتادت عليه في بلدان المأتى

وأما النوع الثاني، فهو عادة ينشط في أوساط المسلمين تحديداً، ويتوجه خطابه بالأساس إلى عامتهم عبر الجمعيات والملتقيات والندوات، وينأى بفعل نوع خطابه عن المجتمع الحاضر فيه، فالمحاوَر من أبناء الملّة والخطاب من داخل النسق الثقافي. كما يفتقر إلى عناصر تحاور أو التقاء مع الإيطالي أو البريطاني أو الفرنسي أو الأمريكي، إلا في ما قلّ وندر، لطبيعة مضامين الخطاب. لذلك، عادة ما يعوّل هذا النوع من النشاط في ندواته وملتقياته على استجلاب الدعاة والأئمة وأساتذةً العلوم الشرعية من البلاد العربية والإسلامية، ولا يولي شأناً لتشريك الأكاديميين أو المتخصصين من أبناء البلد، ممن لهم انشغالات أو اهتمامات بالمهاجر أو بشؤون العالم الإسلامي والعالم العربي.

ونوع ثالث، وهو في الحقيقة أقل نفراً، يعمل متنقلاً بين الطرفين، المسلم والغربي، من خلال أنشطة تتوجّه إلى تلبية رغبات شتى، فضلاً عن وعيه بنوع الخطاب الذي يلقى آذانا صاغية لدى الطرفين.

جراء تلك النقائص، يأتي الحوار الحضاري بين التجمعات المسلمة في الغرب والمجتمعات الغربية في مجمله بشكل صامت أكثر منه بحديث ناطق. مما قوّى انتشار عديد مظاهر الضبابية وسوء الفهم بين الجانبين، وهو ما يتطوّر في فترات التأزم إلى مستوى من الاتهام والاحتقان. فغالباً ما نسمع من الجانبين العربي والمسلم تحميلاً للمسؤولية للطرف الغربي، ولكن ينبغي الإقرار أن المسلم مقصّر في تخاطبه مع المجتمع المضيف، وهذا التقصير عادة حادث بموجب عدم اقتدار موضوعي نقدّر تراجعه في قادم السنين.

لذلك قد يسأل سائل عن دواعي عدم تناسب الحضور الإسلامي في أوروبا، أو في سائر البلاد الغربية، مع حضورهم، مقارنة بغيرهم من أتباع الديانات الأخرى. فمثلاً على مستوى أوروبا، التي يحوز المسلمون فيها المرتبة الثانية من حيث العدد، لا يتناسب حجمهم لا مع حضورهم السياسي، ولا مع دورهم الثقافي، ولا مع وزنهم الاقتصادي، إذا ما قورنوا في ذلك بجاليات أخرى أقل عدداً وأكثر نفاذاً في المجتمعات المضيفة.

كان من جملة العوائق التي سببت هذا الجمود العائق اللساني، المتمثّل في بقاء مفردات القاموس اللغوي المستهلك من قبل المهاجر محدودة، بما لا يسمح له باختراق الوسط الحاضر فيه، فضلاً عن تدني المؤهّل التعليمي لدى شرائح واسعة بما لا يتيح لها قدرة منافسة في سوق الشغل، التي تتطلب تكويناً متيناً. حيث نجد نسبة عالية من المهاجرين متحدرين من أوساط ريفية أو من أحياء مدينية مهترئة[٧]. وهي من الأسباب العميقة التي حدّت من مجاراة تلك الجموع لنسق حركية

المجتمعات الغربية، حتى ظهرت أجيال جديدة من أبناء المهاجرين قلّصت من ذلك الفارق، وبما سمح بالمنافسة في سوق العمل وفي أنشطة الفضاء الاجتماعي.

وفي سياق الحديث عن العوامل الإضافية، التي ساهمت في بلوغ ذلك المستوى من «الإسلام الغربي» والتحريض عليه وتشجيعه، في أوساط الجاليات الإسلامية، لا بد من التعرض إلى الدور الفاعل للإسلام السياسي. فبموجب المطاردة والمحاصرة اللتين عانى منهما طيلة العقود الماضية، عوّل على الاستثمار الديني والسياسي في أوساط المهاجرين. حيث بحث أنصاره وقياداته عن تجذر في الغرب عبر تنشيط الجاليات المسلمة وتوجيهها ورعايتها، لما وجده فيها من مجال خصب وآذان صاغية واحتضان، فاق ما قام به الإسلام الرسمي الوافد أثناء المناسبات مع الممثليات الدبلوماسية.

يأتي الحوار الحضاري بين التجمعات المسلمة في الغرب والمجتمعات الغربية في مجمله بشكل صامت أكثر منه بحديث ناطق

وكان أبرز تطوّرات تلك الأنشطة متمثلاً في كثافة النشاط الجمعياتي ذي الطابع الإسلامي المدعوم بالأساس من اتحاد الجاليات والجمعيات الإسلامية الناشط تقريبا في جل البلدان الغربية. كما تم من جانب آخر إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي[٨]، الذي نزع منزعاً أكاديمياً علمياً ووفق أيما توفيق في أداء مهامه الموجهة إلى المسلمين وغير المسلمين، التي يمكن تلخيص رسالتها في «إسلامية المعرفة» و«عالمية المعرفة» و«شمولية المعرفة». وكذلك مع إنشاء المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث[٩] الذي يتوجه إلى المغتربين المسلمين، بالعمل على ترشيد اندماجهم في الغرب على أسس دينية.

وعلى خلاف ما ساهم به الإسلام السياسي من دور في صناعة الإسلام الغربي، قامت العديد من الدول العربية بالخصوص بعرقلة الاندماج الطبيعي لرعاياها المهاجرين في الغرب، بما سلطّت عليهم من ضغوطات وملاحقات أمنية وترصّد. الأمر الذي جعل المهاجر في حيطة وريبة في مجتمعات الاستقبال. ولم تتقلّص علاقة الخوف مع بلد المأتى سوى مع الجيل الثاني، عقب حصوله على جنسية البلد وتخفّف مخياله من ضغوطات البلد الأصل، بلد الآباء.

وضمن هذا السياق، نشير إلى أن كثيراً من البلدان العربية تفتقد إلى سياسة رشيدة بشأن رعاياها في بلاد المهجر، الذين تنظر إليهم باعتبارهم مغنماً لاستدرار العملة الصعبة لا غير. وربما أبلغ مثال على إهمال مهاجريها أحياء وأمواتاً، حين يستجدي مهاجرون كادحون أمام المساجد الصدقات، قصد ترحيل جثمان من وافته المنية في أرض المهجر، من بني جلدتهم، لأن بلدانهم لا تتكفل بإعادته إلى أرض الوطن.

غياب المؤسسة الدينية الفاعلة

في إيطاليا مثلاً، وحتى موفّى العام ١٩٧٠، ما كان يوجد في روما سوى مسجد يتيم، المعروف الآن

بالجامع الكبير. وأما اليوم فيمكن عدّ زهاء المائتي مصلّى، لكن ثلاثة منها هي مساجد حقيقية وفعلية.

تنتشر المصليات تقريباً على مجمل التراب الإيطالي، ليس في المدن الكبرى فقط، بل في المدن الصغرى وفي الأوساط الفلاحية أيضاً، حيث نجد حضوراً للمهاجرين. توجد في الشمال كما توجد في الجنوب،

كان من جملة العوائق التي سببت هذا الجمود العائق اللساني، المتمثّل في بقاء مفردات القاموس اللغوي المستهلك من قبل المهاجر محدودةً

وإن كانت مصليات المناطق الجنوبية أقلّ شهرة، حتى في أوساط المسلمين أنفسهم، وعادة تلك المتواجدة بالوسط والشمال هي الأكثر تنظيماً[١٠].

ثمة متابعة اجتماعية حثيثة للوجود الإسلامي في الغرب مدفوعة بهواجس أمنية، رُسمت فيها صورة للمصلّيات المنتشرة هنا وهناك، إنها بؤر لنشر الوعي المضاد للثقافة الغربية، فكانت عرضة للاتهام ومدعاة للريبة من عديد الجهات. لكن تلك المواقف الرائجة بشأن تلك المواقع البسيطة، وبشأن أنشطتها وروادها غالباً ما اعتمدت على أحكام مسبقة افتقدت إلى الشفافية والموضوعية والتقصّي.

إذ عادة ما تكون هذه المصلّيات جزراً معزولة داخل الفضاء العام، فضلاً عن افتقارها إلى التواصل مع المجتمع الحاضرة فيه. فلا يمكن الحديث عن برامج مفصّلة لها، فهي عموماً محدودة الأنشطة، وهي بالأساس دُورٌ لأداء العبادة لعمّال وعاطلين ومنهَكين أرهقتهم الغربة، تشهد من حين إلى آخر إلقاء بعض الدروس ذات الطابع الفقهي والوعظي، تستجيب إلى تساؤلات بسيطة لشرائح عمّالية، ثقافتها الدينية محدودة. وإن كان يتكثف نسق تلك الدروس الفقهية والوعظية مع حلول شهر رمضان من كل عام جديد.

أما الجامع الكبير في روما، فلا يتعدى نشاطه، على مدار السنة، أداء شعائر الصلاة، ليتبدل ذلك النسق في شهر رمضان، من خلال استجلاب دعاة من الخارج لإلقاء بعض الدروس الفقهية، أو استقدام بعض المرتّلين لتلاوة القرآن قبيل صلاة المغرب، ليغرق في سباته الطويل حتى رمضان المقبل. ويعود ضيق الأنشطة الدينية والثقافية في تلك المصلّيات إلى عامل أساسي، أن القائمين على جلّ تلك المؤسسات عادة من عصاميي التكوين ويفتقرون إلى مقدرة تسمح لهم بإدراك سبل التخاطب مع المجتمع الحاضن، فضلا عن أن جلّهم من محدودي التكوين الديني المعمّق أو الحديث.

هدفت هذه الدراسة بالأساس إلى صياغة خلاصة عامة عن أوضاع شريحة اجتماعية باتت بارزة في الغرب، غير أن ما نصادفه من انشغال وبحث في مراكز الأبحاث وفي الجامعات الغربية، لا يوازيه شيء يذكر من الجانب العربي، وربما ذلك من الدواعي التي ينبغي على الباحث العربي أن يتفطّن إليها في هذا المجال.

الهوامش

١- **عـز الديـن عناية:** أسـتاذ تونسـي بجامعة روما لاسابيينسـا في إيطاليـا، متخصص في علم الأديـان. صدرت له مجموعة من الأعمال منها: العقل الإسـلامي (٢٠١١)، نحن والمسـيحية فـي العالم العربـي وفي العالـم (٢٠١٠)، إلى جانـب العديد مـن الترجمـات منها علم الأديان للفرنسـي ميشـال مسـلان، والإسـلام الأوروبي للإيطالي إنزو باتشـي، وعلـم الاجتماع الدينـي للإيطاليين سـابينو أكوافيفـا وإنزو باتشـي، وأوروك: أولـى المـدن على وجه البسـيطة لعالم الآثـار الإيطالي ماريو ليفِراني.

٢- فـي ما رواه ابن حنبل في مسـنده: «حدثنا يحيى بن إسـحاق حدثنا يحيى بن أيوب حدثني أبو قبيل قال: كنّا عند عبدالله بن عمرو بن العاص وسـئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو روميـة؟ فدعـا عبدالله بصندوق له حلق، قـال: فأخرج منه كتابـاً، قـال فقـال عبداللـه: بينما نحـن حول رسـول الله ﷺ نكتب إذ سـئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم أي المدينتين تفتح أولا قسـطنطينية أو رومية؟ فقال رسـول الله ﷺ: مدينة هرقـل تفتح أولاً، يعني قسـطنطينية». وهو مـا يوحي بأن دور روما آتٍ لا محالة.

٣- ذكرنا هذه الحالات توصيفاً لواقع الاندماج في إيطاليا.

٤- Felice Dassetto Alberto Bastenier, Europa: Nuova frontiera dell'Islam, Edizioni lavoro Roma 1991, p. 127

٥- Stefano Allievi, Musulmani d'occidente. Tendenze dell'Islam europeo, Carocci, Roma 2005, p. 139.

٦- Ibid, p.178.

٧- Graham E. Fuller Ian O. Lesser, Geopolitica dell'Islam. I paesi musulmani il fondamentalismo l'occidente, Donzelli Editore Roma 1996, p. 43.

٨- يعبّـر المعهد، الذي يتخذ مـن الولايات المتحدة مقراً له، عن رسـالته بكونه يتولى مهمة إصلاح الفكر الإسلامي ومناهجه؛ لتمكين الأمة من اسـتعادة هويتها الحضارية، وإبلاغ رسـالتها الإنسـانية، وتحقيـق حضورهـا العالمـي، وإعانتهـا علـى الاسـتفادة مـن الفرص، ومواجهـة التحديات، والإسـهام في مسـيرة الحضارة الإنسـانية، وتوجيهها بهداية الوحي الإلهي. ويعمـل المعهـد على تأصيـل قضايا الإسـلام الكليـة، وربط الجزئيـات بالمقاصـد والغايات الإسـلامية العليـا، من خلال مشـاريع «إسـلامية المعرفة» فـي الحقول العلميـة المختلفة، وبخاصّة العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ لتحقيق الصلة الوثيقة بين الوحي والمعرفة والقيم. ومن أهدافه:

- بنـاء رؤية إسـلامية شـاملة، تسـتهدف بلـورة نظـام معرفي إسـلامي ومنهجية إسـلامية؛ لفهم الطبائع وإدراك الإمكانات والتحديـات ومواكبـة السـقف المعرفـي المعاصـر، ولتقييم المعرفة المعاصرة، وإنتاج المعارف الجديدة.
- تطويـر منهجيـة للتعامـل مع القـرآن الكريم والسّـنة النبوية الشريفة؛ لتنزيل هداية الوحي على الواقع وترشيد الطبائع.
- تطوير منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي والإنساني.
- تطويـر منهجيـة علمية لفهـم واقع الأمة والعالـم المعاصر؛ للتعامـل معهمـا فـي ضـوء مقاصـد الإسـلام، والمتـاح مـن الوسائل والفرص ومواجهة التحديات الحضارية.

- بلورة منهجية تربوية قادرة عملياً على صياغة الشخصية الإسلامية الفاعلة القادرة على الأداء الحضاري الإسلامي.

٩- يتخذ هذا المجلس من إيرلندا مقراً له، ويضم في مجلسه أعضاء مقيمين في أوروبا وخارجها برئاسة الشيخ يوسف القرضاوي. وقد أنشئ هذا المجلس خلال العام ١٩٩٧ ومن أهدافه الأساسية:

- إيجاد التقارب بين علماء الساحة الأوروبية، والعمل على توحيد الآراء الفقهية في ما بينهم، حول القضايا الفقهية المهمة.

- إصدار فتاوى جماعية تسدّ حاجة المسلمين في أوروبا وتحلُّ مشكلاتهم، وتنظّم تفاعلهم مع المجتمعات الأوروبية، في ضوء أحكام الشريعة ومقاصدها.

- إصدار البحوث والدراسات الشرعية، التي تعالج الأمور المستجدة على الساحة الأوروبية بما يحقق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

- ترشيد المسلمين في أوروبا عامةً وشباب الصحوة خاصةً، وذلك عن طريق نشر المفاهيم الإسلامية الأصلية والفتاوى الشرعية القويمة.

١٠- ستيفانو أليافي: الإسلام الإيطالي: رحلة في وقائع الديانة الثانية، ترجمة: عزالدين عناية وعدنان علي، كلمة أبوظبي، ٢٠١٠ ص: ٤٦.